البربيع العربي";
منظمة ريفية مفقودة ومنظومة مدنية نابضة

غسان سلامة – 28 أيلول 2012

النهار

في ما يلي نص المحاضرة التي ألقاه الوزير السابق غسان سلامة في حفل تسلم جائزة ربيع الحريبي التذكاري لبرنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية "الموئل" في مكتبة نيويورك العامة (28 أيلول 2012). أرسلها بالإنكليزية وترجمتها الرسمية تسرين ناصر.

بعد بضعة أسابيع، وتحديدا في 17 كانون الأول المقبل، سنذكر شخصية أكثر بساطة بكثير، بناءً على خضار فلسطيني بوزيد التونسية الصغيرة، أحرق نفسه مفرغة بالبلاسم، فأطلق حزينا من الأنتفاضات غير المسبوقة في العالم العربي، والتي لم تنته فصولا بعد، وغالبا بما تسمى "البربيع العربي". بالنظر إلى الوراء، شعر البعض بأن بوادر هذه الأنتفاضات تعود إلى عام 2005 عندما نزل مئات آلاف المسلمين إلى الشوارع للتظاهر ضد وضع باتوا يشمشون منه، بعدها شكل اغتيال الحريبي التحديب عنه لندن أشكنت معاملته وتعثر للخيانة واحتز أسرة وكاد يُغتال.

تشتاق السياسة والمخططات والاستراتيجيات مع تلك الأحداث التي تلاحق منذ كانون الأول 2010، إلا أنه من التبسيط يمكن اختصار تلك الأنتفاضات بأنها صراع على السلطة بين لاعبين محليين وخارجين. لا شك في أن هناك تنافصا على السلطة والنفوذ يضع الحكومات والمذاهب والأيديولوجيات في مواجهة بعضها البعض، لكن ما نشهده دبجته أبعد بكثير من هذه النظرية الميكانيكية. صحيح أن كل حالة تختلف عن الأخرى، إلا أن هناك بعض السمات العامة التي يمكن أن نستكشفها في مختلف أنحاء المنطقة.

فمن الواضح تماما أن هناك ثورة ضد الستيطة. ظلت الأنظمة العربية بمئات عن موجة الدموية الثالثة التي أجتاحت أوروبا الجنوبية، وصولا إلى أمريكا الجنوبية، ومن هناك إلى أوروبا الوسطى والشرقية. فبديلًا من الانتحار بذلك التحول الكوني، استطعت السلطة العربية أن تعيد اختراق نفسها وتنتقد لموجة أتاحت لأول مرة في التاريخ البشري، لأول مرة من نصف الكائنات البشرية العيش في ظل نظام ديمقراطي. تثبت غالية واضحة من البلدان، لأول مرة في تاريخها، سياسة مثالية، إما ليس في منطقتنا من العالم، مما دفع ببعض الخبراء القليل الصفر إلى التنزف واستنباط النظريات حول ما سماوا "الاستتباع العربي"، وهو في نظرهم نوع من المناخ السياسي الذي تحول دون اعتماد السياسة الإشراكية.

ما يميز العالم العربي الآن هو إلى حد كبير تتمة متاخمة لهذه الموجة، حيث نطالب الشعوب في تونس وسوريا، ومصر والبحرين، بمزيد من المشاركة السياسية، وتحصل أحيانا على ما ترد أي تخفيف على الأقل اللامن الأولى لعملية الإصلاح وثبات خطة الكثير من النظريات القائمة. لكن هذا ليس سوى جزء من الحكاية. فالانتفاضات الحالية تعتبر أيضاً عن تمرد شرائح واسعة من المجتمع ضد المستفيدرين المحليين من العولمة.
في القاهرة وتونس، وفي دمشق كما في صنعاء، ضاقت الناس ذرعاً بالإجراءات الاقتصادية التي أتاحت لنخبة محدودة مزودة بالحكومات الإفادة حصرًا من منافع النمو الاقتصادي، مثل عمليات التخصيص الوبائي التي تسيطر أزارام النظام من خلالها على مقتنيات البلاد والأملاك العامة من طريق المحسوبات والعمليات. لقد هتف المتظاهرون في الشوارع: "عاقبيه منيد النظام القبيحة، والأن علنت أشياء تحول في الأيام". لهذا السبب ليست الانتفاضات الراهنة سياسية وصحبة، بل إنها أيضاً أخلاقية بما أن المشاركون فيها يطالبون بمزيد من الشفافية وال-transparent في الوصول إلى الموارد وشهد أيضاً - وهذا يتعلق في مسألة بالملكية أينما الزملاء في برنامج الأمم المتحدة للمستعمرات البشرية "المولى" - شرورة للأطراف على المراكز المدنية.

الأنظمة التي قامت مباشرة بعد الاستقلال انتقلت إلى حد كبير من قاعدة ريفية، فصلت بفضل الدعم من الفلاحين وأبناء البلدات. لكن في الأونة الأخيرة، تدخلت مع معلومات مشتركة عن منظومة الدعم التقليدية التي كانت تتمتع بها في المناطق الريفية وتشملت مع الطبقات المدنية. كان المسؤولون الريفيون مكونين يجلسون في ساحة المشارب على الجرف الحائر لم يكترووا إلى المناطق الداخلية، وأهم المسؤولون السوريون طيقة الفلاحين التي أصابها البوس جزءه الفلاح الذي ضرب البلاد سنوات متواصلة، ولم يُعرّ حكومات أخرى اهتماماً لعال وعازفة بحرية والبرامجية عن استخدام أعداد متزايدة من الشباب من الأرامل. وتواترت إلى الصياح أعداد هائلة من الأشخاص الذين نزحوا من الأرامل إلى أطراف المدن ليصبحوا في مدن صيفي غير شرعية ويشتملوا في البحث عن وظائف. أصبح حجم مدن مثل الإسكندرية وحلب وغداد مضايفاً أربع إلى خمس مرات مقترنة بما كان عليه قبل 30-35 عاماً.

يتأثر معظم المشاركون في الأحداث الديمائية المتالفة، في جهات الإقتصاد السياسي، إلى هذه الشخصيات الاجتماعية، ويشيرون جميعهم إلى منظومة ريفية لم يعد لها وجود، وتحثهم منظومة مدنية غير مرحبة تذهبهم وتبيّنهم في الوقت نفسه.

هذا تدخل ديناميكي ثقة تقوم على سياسة الرفاهية. كان للعشائيرة الحزب الأكبر في بداية الدعوة الريفية، وفي النهاية التي آلت إليها، والإصلاحات المجتمعية ضرورية للمسالة العربية أو البرجوازية. للانتفاضة الإثناي تأثيرٌ حاسم في كردستان كما في بلد الغرب الأوروبية. ولا شك في أن الدين يؤدي في كل مكان بعضٌ من، أو كل الوظائف الاجتماعية التي زاهيا فيها علماء الأثثولوجي.
بعد مرور الوقت، يكتشفون كم كان الأمر سهلاً عندما كانوا نخبة مضادة، وكم هو متطلب عندما أصبحوا نخبة حاكمة.

العنصر الخامس في الانتقادات الحالية هو نقاشٍ مفتوح حول ما يجب أن يكون عليه حكومة شرعية. إذا مثّلت لِإعادة كتابة ثلاثية في، فكأنها أن الشرعية استندت إلى مبدأ الأصول، أتى أحكمها لأنثى أُسسَت هذه البلاد وتحمل اسمها. لأنثى قتَّت النضار من أجل الاستقلال أو لأنثى خضت حرباً ضد إسرائيل. لقد أظهرت الأجيال الجديدة أنها لا تتأثر كثيراً بهذا المزاعم الإنجازات.

وفي حين أنها لا تشكل بمصداق الشرعية هذا، تضيف: ليس كافياً. ومن هذه إقرارها أن لا تستند إلى الماضي وحسب إنما أيضاً إلى مكونات وظروف راهنة. عملياً، يعني هذا أنه يجب أن تتبع الشرعية في التمثيل وتستند إليه. يمكن أن تحكى لنا أنتما أنفسنا حاكماً علينا، وبذلك يمكن أن تبني الشرعية أيضاً من الإنجازات الحقيقية: يمكن أن تحكى لنا ذلك أثلت براعتك في إدارة المنافع العامة.

في رأيي，则 تكون الشرعية المستندة إلى مزاعم الأمس كافية بالنسبة إلى الأجيال الجديدة من العرب لاعتبار الحكم مقبولاً. سوف يُصرّن على أن تتبع الحكومات بمعنى تحقيق أن تقوم بإنتاجات حقيقية. هذا هو في رأيي المناظر، بالكانت الأحكام الرئيسية للأحداث التي تحسنا هذا نحت هنا. كانت ساناً لاستناد اعتقاد بأن هذه كلية حكورية تأتي من صوفاً وبرغراً. لا شك في أن قوى خارجية وأخرى بعيدة وجهات إقليمية طامحة أدت كلها دوراً ما في هذه الصراعات التي تنتهي فصولاً، كما تشهد الأثاث البدا من مجلس الأمن الدولي على بعد بضعة شوارع. لكن ومع إدراك أن كلامي هذا قد يعرض للانتقادات من الأمريكيين ومن أعدائهم على السواء، أقول بوضوح إن دور أميركا في إطلاق هذه الأحداث وإدارتها أصغر بكثير مما يحل لبعض الأمريكيين الاعتقال وأيضا أقل مما يرمزه معظم أعدائهم. إنها عملية محلية المنشأ إلى حد كبير، تضمنها وتفاوتها بفعل التشكّلات والحصومات الإقليمية، مع تأدية القوى غير الإقليمية، وبينها القوى العظمى، دوراً متواضعاً إلى حد بعيد مقارنة بالقضي.

بالطبع، لا أحد بريء، ومن الطبيعي وسط هذه الصراعات الشديدة المفتوحة على كل الاحتمالات، أن تنتهج معظم القوى في المنطقة والعالم للدفاع عن مصالحها وحفظها المحليين بواسطة الأمواج والأسلحة والدعم الدبلوماسي. تلك المنطقة من العالم ليست هامشية على الإطلاق، والمطالعات الأهلية اللتان تصرفهما شديداً الأشغال: النفق والأدباء. ولذلك تتخبق القوى الخارجية إليها لأسباب تتعلق بالعنف والخطط الإمبريالية، ولا يمكنها تاقي اقليامي إزاء ما يحدث في بعض الأماكن ليجيء أثرت تلك القوى في النتيجة عبر التحلي في بلغوا وبينما أخرى مثل اليمن أو سوريا، كان تدخلها محدوداً، عن خيار منها أو بحكم الضرورة إنما حكماً ليس في باقي.

لكني أعتقد أن دورة عدم الاستقرار التي يبدو أنها ستستمر لسنوات عديدة، والتي لا تبلغ بعد نطاقها الجغرافي الكامل وربما لم تصل بعد إلى النهاة، ستتوقف أكثر على طبيعة الانتقال، وللشكل السياسي أو العسكري للانقاذ، ونوعية الأشخاص الذين سيقودون عمليات الانتقال السياسي، والدور الذي سيلعبه القوات المسلحة، والمنافذ المفتوحة بين الصعوبات الاقتصادية والاستقرار السياسي، أكثر منها على التدخل من خارج المنطقة. ما علاقة فيلم رهيب أنتجته شخص غامض في كاليفورنيا وأثار ردود فعل دموية، بهذا كله؟
خلاصًا، لا أرى رابطاً قوياً ما عدا الميل الذي لا يمكن ردعه لدى عدد كبير من اللاعبين والذي يدفعهم إلى أن يحاولون أن يستخدموا بطريقة انتهازية كل ما هو متاح لهم لتحويل الانتباه عن المسائل الحقيقية التي يواجهونها.

بيد أن الشعور بالإساءة إزاء المسّ بما يعتبره المرء من المقدّسات، أمر طبيعي ومثير، وعلى الأسرة الدولية أن تتواصل إلى نوع من التوافق بين احترام المقدّسات واحترام حرّية التعبير. إننا نواجه فعلاً ما يمكن تسميته صدام المعايير: البعض يصنّع اهتمامهم كاملاً على الفرد، والبعض الآخر يمسكون بهواجس المجتمع؛ البعض يدعمون الحرّية دعماً مطلقاً فيما يدافع البعض الآخر عن الأشكال الدنيا من الاحترام المتبادل. ليس لصدام المعايير متدى حيث يمكن مناقشته بصورة عقلية، ولا أعلم في الوقت الراهن يوجد أي منظمة مجهزة ومنكّبة على النظر مباشرةً في صدام المعايير، بدلاً من صدام الحضارات، ولا أرى أيّ محاولة جدية لإيجاد حل لهذا المصدر الأساسي للتشنج في الشؤون العالمية. لذلك نحتاج في هذا الإطار إلى منتدى دولي مناسب، وإلى التحلي بالعزم لمعالجة المسألة، والسعي بصدق لوضع دوّرة سلوكية تتقيد بها جميعنا.

لكن من أجل تحقيق ذلك، نحتاج إلى رؤييين، كما في إعادة إعمار البلدان والمدن. لست واقعاً من أنهم موجودون بأعداد كثيرة في الوقت الراهن، لكنني أدعوكم، إلى التفكير في أفضل الطرق لإعادتهم إلى حياتنا العامة.

وزير سابق